

العربية الصحيحة

شفيق جبرى

عضو المجمع العلمى العربى بدمشق

أية لغة ، فلا هو من بيان العرب ولا هو من بيان
الفرنجة ، فالذى يؤلنا أن المحافظة على لغة العرب
الصحيحة فى بعض الصحف ودور الاذاعة وفى بعض
المؤلفات قد ضعف أمرها حتى كاد يضمحل ، وقد
كان أئمة البيان فى أوائل هذا القرن وأواخر القرن
الماضى اذا وقعوا على شيء من اللحن نبهوا عليه ،
وقد تطول المناظرات فى هذا التنبيه ، ولا ننسى اهتمام
الشيخ ابراهيم اليازجى بتتبع لغة الجرائد ومفانط
الكتاب والشعراء ، ولا ننسى مناظرة الأئمة فى هذا
الموضوع ، أمثال الامير شكيب أرسلان ومن هم فى
طبقتهم ، أما الآن فقد أطلقت الأقلام اطلاقا ، فأصحابها
ينحرفون فى بعض الاحايين عن اللغة وروحها فلا نجد
من ينبههم على هذا الانحراف ، حتى لو نبههم لما بالوا
بهذا التنبيه ، أذكر أن أحد طلاب كلية الآداب فى
الجامعة السورية جانى بعد فراغى من انتدريس
واستأذنتنى فى قراءة قصيدة على من شعره ، فقرأ
القصيدة ولا بأس بشاعريته ، الا أنه جاء فى القصيدة
لفظة غير صحيحة فلفت ذهنه اليها فقال : يا أستاذ !
مسألة اللغة بطلت ! وصاحبنا من أصحاب الانشغال ،
فمسألة اللغة لم تبطل فى نظر هذا التلميذ وحده
ولكنها بطلت فى نظر كثير من الذين يسكنون بالاقلام
فلا يبالون بما تجنى أقلامهم على اللغة ، ولو شئت أن
أدون طائفة من هذه الجنايات لأعوزتنى أوراق كثيرة ،
ولست فى حاجة الى أن أحلف انى لا أنهم ما يقولون ،
وانى لاجزم أن كثيرا من أمثال لا يفهمون ما لم أفهم .
لا ريب فى أن العصر الذى نعيش فيه انما هو
عصر الانقلابات والثورات وما شابه ذلك ، ولم تقتصر
هذه الانقلابات والثورات على مذاهب العلم والاقتصاد
والاجتماع والسياسة وحدها ، ولكنها امتدت الى اللغة
نفسها حتى أصبح الذين يهتمون بلغة العرب ويقارون على

نظم « اناطول فرانس » فى بعض احاديثه ادبيه على
امام الغصه سى برست « دى موباسان » وقد احسب فى
صاحبه من حصائص منه واسراره ، ولكنى لا اشير فى
هذا المقام الى ما دلره من قدره ومروته وسير دلت ،
ولا يعنينى من بل ما قاله الا العبارة التى حتم بها
حديثه ، فقد قال فى حانته هذا الحديث :

« أنا ما يتعلق بعنه السيد « دى موباسان » فاني
التقى بان اقول ان هذه اللغة انما هى من الفرنسية
الصحيحة ولست اعرف تاء أجمل من هذا التناء » .

هذه هى العبارة الوحيدة التى حبست عليها الذهن
فأقتبسيتها لتلون عنوان المقال ، فقد استغنى « اناطول
فرانس » عن الخوص فى كل ما يتصل بمحاسن لغة
« دى موباسان » ولخص هذه المحاسن فى قوله : لغته
من الفرنسية الصحيحة ، والذين درسوا هذه اللغة
يعرفون ان الفرنسية الصحيحة هى التى تجمع الوضوح
والسهولة والبساطة وما شابه ذلك .

انفصل فى هذا المقطع عن هذين الامامين ، واجعل
نصب عيني العبارة التى اقتبسيتها فاهتم بانعريبه
الصحيحة وبما صارت اليه فى هذه الايام ، وما أظن
بى حاجة الى الاسراف فى الكشف عن خصائص العريبه
فان هذه الخصائص لا تخفى على الذين قلبوا النظر
ستين طويلة فى القرآن الكريم والحديث الشريف
وخطب الخلفاء الراشدين والخوارج وكلام شيوخ
الشعر وبلغاء الكتاب الذين اجتمعت لهم اسباب البيان
فملكوا أعنة الكلام فلم يعجزوا عن الافصاح عن شيء
من الافكار بما يناسبه من الالفاظ ولم يخرجوا فى هذا
الافصاح عن روح اللغة وعبقريتها .

اذا كان موضوع العربية الصحيحة قد خطر الآن
ببالى فانسبب فى هذا ان الذين يقارون على لغة العرب
يمرون فى هذا العصر بنمط من البيان لا يعلمون من

عبقريّة هذه اللغة في نظر كثير من المهوسين موتى أو مرضى أو مشوهين ، وهم لا يدرون أن انذى مات انما هو فهمهم وأن الذى مرض انما هو ذوقهم وأن الذى شاء انما هو أدبهم ، ولست أعلم ولا يعلم غيرى مدى هذا الهوس ، ولما ذا لا أقول : هذا الجنون !

كنت في بلدة من ولاية « فيرجينية » في اميركة ، فدخلت عرضاً جامعة هذه البلدة وزرت مكتبتها ، فوقعت عيني على كتاب لا يحضرني اسمه ولا اسم مؤلفه ، ولكنني أذكر أنني وجدت في بعض صفحاته أن أحد رجال « الكونغرس » قال في المجلس : انا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين من اللصوص والقتلة وغيرهم ، فلما ذا لا نضع قانوناً يعاقب به الذين يفسدون اللغة ويتهاونون بمقدساتها .

هذا قول قيل في اميركة ، في البلاد التي يزعمون أنها غرقت في المادة فلم تكن عنايتها بأمور الفن والادب واللغة على قدر عنايتها بالعامل والمصانع ، فما بال البلاد التي لم يبق لها من ميراثها الضخم في تاريخها الا اللغة ، ما بال هذه البلاد يرى رجال الامر فيها فساد اللغة ولا يتحركون ، فان أهل الادب لا يستطيعون أن يروا بأعينهم الاستخفاف باللغة ومقدساتها دون أن يساورهم الألم في هذا الاستخفاف ، ولو تتبعنا تاريخ الامم الادبي لرأينا ان هذا التاريخ ملآن من أسماء الذين وقفوا أنفسهم على الدفاع عن اللغة ومناهضة الذين يعبثون بروحها وعبقريتها ، ولم يكن اهتمام الامم بلغتها في القديم أكثر من اهتمامها بها في الحديث فقد قرأت من أربعين سنة في بعض الصحف او بعض الكتب أن ناقداً من نقاد ايطالية المشهورين قال : انني أمر في هذا العصر بعبارات فأشعر بأن معدتي تنقلب على ، ولا شك في أن معدته لم تنقلب عليه الا لان تلك العبارات خارجة عن روح اللغة الايطالية .

من بدائه الامور ان اللغة لا تقف عند أفق من الآفاق ، فهي في حركة مستمرة ، في انتقال من طور الى طور ، ففي كل عصر تموت ألفاظ وتولد ألفاظ ، في كل عصر تنتقل ألفاظ من وجه الى وجه . مرة تنتقل من معنى خاص الى معنى عام ، ومرة من معنى عام الى معنى خاص ، في كل عصر تولد تراكييب لا يعرفها العصر المتقدم ثم

تموت تراكييب كانت تعيش في القديم ، والشواهد في هذا البات كثيرة ، فانا لا نفتح معجماً من معجمات اللغة الا رأينا ألفاظاً ماتت لا يستعملها أحد في هذه الايام ، ولا نفتح بعض كتب الادب القديمة الا وجدنا تراكييب أو استعمالات لا يأنس بها هذا العصر ، فلا خوف من موت بعض الالفاظ أو بعض التراكييب ولا خوف من ميلاد بعض الالفاظ أو بعض التراكييب ، انما الخوف من كل الخوف من خروج اللغة في هذا الميلاد عن روحها وعبقريتها ، الخوف من كل الخوف من ميلاد ما لا يألّفه ذوق اللغة ، ان الذين جدّدوا اللغة في القديم ، وقد يكون أبو تمام على رأسهم ، قلبوا معاني الالفاظ من وجه الى وجه ، فضيقوها حيناً ووسعوها حيناً وجاءوا بتراكييب حديثة ، الا أنهم لم ينحرفوا في هذا الامر عن روح اللغة ، فاذا قرأنا شعرهم فانا نقرأ شعراً عربياً لاشعرا أعجبنا ، أما أن يترك شأن توليد الالفاظ والتراكييب لجماعة طائشين ، مهوسين ، لا علم لهم باللغة ، ولا احاطة لهم بالادب ، ولا اطلاع لهم على تاريخ هذه اللغة وهذا الادب ، فهذا معناه فساد اللغة وضياعها .

وخلاصة الامر انني أشعر بأن العربية الصحيحة قد ضعفت في هذا العصر ولا عبرة بفثة من اصحاب القام لم تضعف عربيتهم ولا ضعفت غيرتهم عليها ، انما الخوف من هؤلاء النش. الذين أمسكوا بأقلامهم وأطلقوها في كل مهب ، فلا نحن نفهم ما يقولون ، ولا هم يفهمون ما قالوا ، ولا نستطيع أن نقول : لهم فهمهم ولنا فهمنا ، فان اللغة ليست ملكهم وحدهم حتى يعبثوا بها كيف شاءوا ، وانما هي ملك الامة بحذاقيرها ، وعلى الحكومات تقع تبعة الاهتمام بها كما تقع عليها تبعة الاهتمام بالمجرمين ، فهي التي تتولى في مدارسها تدريب النش. على ذوق اللغة ، هي التي ينفخ أساتيد مدارسها روح اللغة في روح الطلاب . فانا نخشى ان تنحصر العربية الصحيحة في طبقة محدودة من أهل الادب وان تشيع في الطبقات العامة عربية غير مفهومة وفي هذا الامر ما فيه من العواقب غير المحمودة .

شفيق جبري